4

فريسة الذئاب !

قال سندباد :

وقفنا صامتين ننظر إلى ثياب أشرس وحنظل ملوّثةً بالدم، فلم نشك في أن الذئاب أكلتهما !

ثم ابتعدنا عن الحفرة والحزنُ يملأ قلوبنا، وفى نفوسنا شعورٌ خفىٌّ بالخوف على أنفسنا من مثل ذلك المصير!

وأشرق علينا الصبح ونحن لم نزل نفكر في أمرنا؛ فلما انتشر الضوء نظرتُ إلى الشيخ قائلًا: أليس من الخير لنا أن نعود سالمين؟

فابتسم وقال : أتريد أن نعود بغير الكنز يا سندباد؟

قلت : ومن أين لنا الكنز، وقد طغى عليه ماء البحر فلا سبيل إليه؟

قال : لقد طغى ماء البحر، ولكنه سينحسر عنه مرة أخرى إذا جاء المساء وسطع القمر، كما رأيت أمس!

قلت : أنبقى هنا إلى المساء ونخاطر بأرواحنا من أجل الكنز؟

فربَّت كتفي قائلًا : أنت أشدُّ خوفًا مما كنت أظن يا سندباد!

قلت : ألا تخاف الذئاب؟

قال : وهل تخاطر الذئاب بأنفسها فتعود إلينا ومعنا أبو الإسعاد ؟

حينذاك سمعت صوت أبى الإسعاد ينطلق من فمه مرة أخرى مثل عواء الكلب : هَوْ هَوْ، هَوْ !

ثم أرسل ضحكةً مرحةً وقال : إن الذئاب تخاف هذا العواء أكثر مما يخافها الناس؛ فاطمئنَّ يا سندباد، فسأكفيك شرَّها!

قلت ضاحكًا : أنت " نمرود "!

فضحك أصحابنا جميعًا وقد فهموا النكتة، أما أبو الإسعاد فلم يضحك؛ لأنه لم يكن يعرف " نمرود" ولم يسمع باسمه من قبل ..

وتذكرتُ نمرود في تلك اللحظة ...

واسترسلتُ وراء خواطري أحاول أن أتذكر أين فارقني نمرود ومتى، ولكن الشيخ أبعدني عن الفكر حين قال لي: سنقضى اليوم هنا كما قضينا أمس؛ فإذا سطع القمر وانحسر الماء عن الشاطئ، خُذْنا إلى الكنز حتى نبلغه، فنأخذه، ثم نعود إلى المدينة ..

واتجهنا إلى الشاطئ، حيث أرسى أبو الإسعاد الزورق، ولكننا لم نكاد نمشى بضع خطوات حتى وقفنا بغتة؛ فقد رأينا على مدِّ البصر جثة إنسان، فأسرعنا إليها جميعًا دون أن نتبادل كلمةً واحدةً وكانت جثة أشرس.

فلما اقتربنا منها سمعنا أنينًا خافتًا، فعرفنا أنه لم يزل حيًّا؛ فلم نذكر في تلك اللحظة إلا أنه إنسان مثلنا يحتاج إلى معونة ...

وكنت أسرعهم إليه، فجثوت إلى جانبه لأعرف ماذا به، فإذا هو جريح مرضوض العظم لا يقوى على حركة ولا كلمة ولا إشارة؛ ولم يكن يستر جسده إلا قميص ممزق يكشف عما وراءه من جروحه؛ فلم أكد ألمسه حتى انتبه ونظر، ثم قال : سندباد ؟ الرحمة والعفو يا سندباد!

قلت : ماذا بك يا أشرس؟ وأين الثياب التي كانت عليك؟

قال : رجلي مرضوضة منذ سقطتُ في تلك الحفرة، وثيابي هَبَرَها الذئب ليأكلني، فانخلعتُ منها وفررت هاربًا؛ ولكن الذئاب الأخرى أدركتني، فأوقعتني وأنشبت أنيابها في جسدي، ثم أنقذني منها كلب يعوى، فهربتْ عنى وتركتني؛ وأنقذني عُواؤه من التمزيق!

وكان أبو الإسعاد قد أدركني فجلس إلى جانبي يستمع إلى حديث أشرس؛ فلما رآه يعترف بجميل ذلك الكلب، ابتسم ثم أرسل من فمه عواءً مُتصلًا: هَوْ هَوْ هوْ... هوْ !

فحدَّق أشرس في وجهه لحظةً ثم قال: أنت؟ إنني مدين لك بعمري يا أبا الإسعاد، فسامحني وانس ما كان مني إليك !

ثم غُشي عليه مرةً أخرى؛ فأخذت أعالجه ليفيق، وانصرف إليه وحده تفكيري وتفكير أصحابي، فلم ننتبه إلا على صوت يهتف من ورائنا: دعوه يموت؛ إنه شرير خائن لا يستحق الحياة!

فالتفتنا جميعًا إلى وراء، فوقعت أعيننا على حنظل؛ وكانت رؤيته مفاجأةً أخرى، إذ كنا نعتقد كذلك أن الذئاب قد افترسته؛ ولاحظت أنه – مثل صاحبه – ليس عليه إلا قميص؛ فقلت له: أين ما كان يسترك من ثياب يا حنظل؟

قال : انخلعت منها وتركتها بين أنياب الذئب، وقلَّدني هذا الجبان فنجا بجلده!

ثم هجم على أشرس ليقتله، فمنعناه؛ وانتبه أشرس من غشيته في تلك اللحظة، فأنَّ أنينًا خافتًا، ثم هتف ضارعًا: أنقذوني ينقذكم الله!

فأخذتني الشفقة عليه، وجلست إلى جانبه أحاول أن أعالجه؛ والتفَّ أصحابي حول حنظل ليمنعوه أن يقترب ...

ولم يكن معي قطن، ولا شاش، ولا مرهم، ولا مطهِّر، ولا ماء نقي؛ ولكني استطعت برغم ذلك أن أخفف بعض آلامه، فقد أبعدتُ قميصه عن مواضع الجروح، حتى لا يحتك بها في تألم؛ وأزلت ما كان متجمدًا عليها من الدم بلطف، ثم أسندت ساقه المرضوضة إلى صخرة بجانبي؛ لأمنعها من الحركة فتخفَّ بعض آلامه ...

وكان بعض أصحابي قد ابتعدوا بحنظل، وبقي اثنان منهم إلى جانبي، فطلبتُ منهما أن يعاوناني على حمله إلى الشاطئ؛ ثم غسلت جروحه بماء البحر، وجعلت عليها رباطًا من قميصه، ثم حملناه إلى الزورق فألقيناه في قاعه؛ وعدنا إلى الشاطئ لننتظر سائر أصحابنا ..

وكنا نحفظ طعامنا في قاع الزورق، فلم يكد يشم ريحه حتى زحف إليه، ثم كشف عنه غطاءه وأخذ يأكل، دون أن يفكر في حق الذين أنقذوه من الموت، ليقدِّم دليلًا لنا على أن اللص لا ينسى " حرفته " حتى اللحظة الأخيرة من عمره!

ولم يلبث أصحابنا أن جاءوا وليس بينهم حنظل؛ إذا ابتعد مُغضبًا فلم يتبعوه؛ فانحدرنا إلى الزورق وقد عاد إلينا الشعور بالجوع، وتذكرنا الطعام، ولكن بعد أن ذهب أشرس بأكثره؛ فلما رآنا مقبلين عليه كفَّ عن الأكل واستلقى في مكانه وهو يقول : إنني عطشان فهل عندكم ماء عذب؟

قال أبو الإسعاد وهو يمد يده إليه بقلة ماء مبرَّد : خذ، لا بارك الله لك في طعام ولا شراب!

فقال : ارفعوها إلى فمي، فإني لا أقوى على حملها !

فحملها أبو الإسعاد إلى فمه فسقاه، ثم عاد إلى ما بقي من الطعام فقسمه بيننا، وكان نصيبي لُقيمات قليلة ولكنها كافية، فأكلت وشربت؛ وحمدت الله، ثم شعرت بأجفاني تثقل فكوَّعت إلى جانب أشرس؛ ولكن أبا الإسعاد لكزني قائلًا : ليس هذا وقت النوم !

وقال الشيخ موافقًا : نعم فهيا إلى الشاطئ، ودع أبا الإسعاد فإن عليه واجبًا آخر....

فأطعتُ وبي غيظٌ شديد، ووثبتُ إلى الشاطئ، ووثب أصحابنا جميعًا، فلم يبق في الزورق غير أشرس وأبى الإسعاد؛ فلما صار وحيدًا مع أشرس في الزورق، حل رباط الزورق وأدار دفتَّه، ثم أخذ يجدِّفُ مبتعدًا عنا، ولم يلبث أن اختفى عن أعيينا؛ فنظرتُ إلى الشيخ مستفهمًا، فقال: سيذهب بأشرس، ثم يعود إلينا بطعام وماء!

وجلست إلى جانب الشيخ في ظل الصخرة التي كنا نختبئ خلفها منذ ساعات، وجلس أصحابنا حوالينا ..

وثقلتْ أجفاني مرةً أخرى، فقلت للشيخ : هل أستطيع أن أنام الآن؟

فابتسم الشيخ قائلًا : إذا أردت فنم ..

فهممتُ أن أطوي ذراعي تحت رأسي وأستسلم لنومة هنيَّة؛ ولكنِّي تذكرت الذئاب التي كانت تعوي، فطار النوم من عينيَّ وقلت للشيخ : أكان من الضروري أن نبقى ويذهب أبو الإسعاد؟ ألم يكن من الخير أن يذهب غيره، ويبقى هو ليطرد عنا الذئاب ؟

قال الشيخ باسمًا : أتعني هذا ؟ لا تخف؛ فقد تعلَّمنا جميعًا كيف نكون "نماريد" حين تعوي الذئاب ...

ولم يكد ينتهى من كلمته حتى سمعتُ حواليَّ من كل جانب عُواءً متصلًا متنوِّع النغم : هَوْ هَوْ هَوْ ...

كأنما أغار علينا فجأة قطيع من الكلاب ينبحنا؛ فأزعجتني المفاجأة، ولكنِّي لم ألبث أن ضحكتُ فأغرقت في الضحك، حين عرفتُ مَنْ أولئك النماريد! ...